رمضان في مدن العراق

طقوس رمضان بين الأمس واليوم في مدينة كربلاء

يتّسم هذا الشهر بالطابع الديني والفولكلوري المتميز في هذه المدينة. فهو شهر الصيام والقيام والإطعام والتسبيح والمروءة والفتوة، وقيل بأنّ رمضان في الأيّام، كالنبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في الأنام.

وقبل شهر رمضان بأيّام معدودات يستعد الناس لشراء المواد الغذائية الخاصة بالشهر، كالطحين والتمن والدهن والهيل وغيرها، وتعرف بـ (الكَيْل)، ويزداد عليها الشراء والطلب في رمضان، وإلى ذلك يُضرب المثل المعروف (جدّ الدهر، واكله ابشهر). وقد تكون الحاجات التقليدية اليومية لأيام رمضان ولياليه قد وصلت إلى حوانيت العطارين والبقالين والشكرجية، فتنتعش حركة السوق في الأيّام الأخيرة من شهر شعبان انتعاشاً يخالف الأيّام الأخرى. وفي هذه الأيّام بالذات نسمع من على مآذن الروضتين الحسينية والعباسية عبارات تهليلية، ترحب بمَقْدم الشهر بعد أذان الغروب وأذان الفجر، ومنها: (مرحباً بك يا شهر رمضان، مرحباً بك يا شهر الطاعة والغفران.. مرحباً يا شهر الخير والبركة... إلخ).

وهناك عادة متوارثة تقوم بها معظم العوائل الكربلائية وهي التّسابي (التّسابيق) أي الصوم ليوم واحد أو ثلاثة أيّام في أواخر شهر شعبان استعداداً للشهر المبارك. وفي مساء يوم ٣٠ شعبان يصعد الناس على سطوح المنازل والمساجد والمرتفعات العالية لمراقبة هلال رمضان، وبعد التأكد من ظهوره يعلنون البشرى ببدء الصوم. وفي الليالي الأولى من هذا الشهر ترى الباعة على امتداد الأرصفة والأماكن العامة يعرضون المعروضات (البَسْطيات)، وفي مقدمتهم باعة البقلاوة والزلابية وشعر البنات والباميا السكّرية ومَنّ السما والحلقوم وكعب الغزال والملبّس والراك وتاج الملك والمحلّبي. وتسمع من المتجول (البَسته) التي يرددها الأطفال في الأزقة والحارات:

(زلابيه وبقلاوه وشعَر بنات /وين أوَلّي وين أبات/أبات بالدربونه/لمن تجي الخاتونه..)

وتمتدّ الموائد وعليها صحون الحلويات بأشكالها المختلفة وصحون المحلّبي على امتداد أرصفة الشوارع أو دكّات الدكاكين المغلقة، وقد تكون في جانب بعض المقاهي لأنها تُغلق في النهار، وبالليل يباع المحلّبي.

وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها قلّ وجود السكر في الأسواق، وكاد ينعدم، ما اضطر أصحاب الحوانيت عمل الزلابية والبقلاوة بواسطة الدبس، أي شيرة الدبس. ولابد من الإشارة إلى أنّ الزلابية كانت تعمل على نوعين: ١. ذات الدهن الحر، وكان سعر الكيلو منها ٦٤ فلساً، ٢. ذات دهن السمسم، وسعر الكيلو منها ٥٠ فلساً، كان ذلك في حدود سنة ١٩٤٨ وحتّى بداية الخمسينيات.

وقبيل وقت السحور بفترة أمدُها ساعة واحدة أو أكثر، يطوف (المسحراتي) أي الطبال ليدق على صفيحة فارغة (تنكه) منبّهاً النائمين وموقظاً إياهم، ثمّ تطورت هذه العملية بالضرب على الطبل بدلاً من الصفيحة، وذلك استعداداً للسحور في كل ليلة من ليالي رمضان، وهذا التقليد من العادات القديمة المتوارثة حتّى يومنا هذا، وضربات المسحراتي بطبله يدويّ في سكون الليل منادياً (اكعدوا ياالصايمين اكعدوا اتسحّروا). وفي هذا الوقت نسمع التمجيد من على المآذن، وهو دعاء يتلوه المؤذن بأطوارٍ مختلفة وألحان شجية مؤثرة، داعيا ومذكرا ومحرّضا على السحور، فتستعد النسوة لطبخ التمن والمرق، ومنهن من أعدت طبخ الطعام منذ الإفطار اختصاراً للوقت.

وبعد أن ينهض أفراد العائلة جميعاً . عدا الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم . يجلسون حول المائدة لتناول التمن والمرق والخبز، أو يشربون الشاي، ويتناولون الفواكه. بعدها يقرؤون دعاء البهاء وأوّله: (اللهمّ إني أسألك من بهائك بأبهاه) والأدعية الخاصة بالسحور الأخرى.

وقبيل أذان الفجر بعشرين دقيقة، نسمع مناجاة المؤذن، وكانت تؤلّف أبياتاً من القريض خصيصا لهذه المناسبة، وهي:

إشرب الماءَ هنيئاً يا مُحبْ
واجْرِ دمعَ العين حُزناً وانتَحبْ
لحسينٍ السِّبَط في جَنبِ الفراتْ
مات عَطشانا شَهيدا مُحتسبْ
إشرب الماء هنيئاً إنه ماءٌ مُباحْ
اشرب الماء هنيئا بسلامْ
واذكُر المقتول من جَور اللئامْ
سبط طه المصطفى خير الأنامْ
قد بقي ثاو على وجه الرُغامْ
أيّها المُذنب تبْ لله إن شئتَ النجاةْ
حيث يُعطيكَ جِنانَ الخُلد أعلى الدرجاتْ
فهنيئاً لَك يا صائمُ نلتَ الحسَناتْ
يَتقبّلْ منك هذا الصومَ ربُّ الكائناتْ

ثمّ يكررها مرات عدة، أو يتلو غير هذه الأبيات، ثمّ يسرع أفراد العائلة إلى شرب الماء قبل أن يُعلن عن الأمساك، وقبل أذان الفجر بدقائق يمتنع الجميع عن تناول الطعام والشراب، بينما نسمع المؤذن ينادي: (إمساك.. إمساك.. غفرَ الله لكم يا صائمين). وهنا يشرع المؤذن بالأذان، وينهض الصائمون لتأدية صلاة الصبح، سواء في البيت أو في مسجد قريب من الدار. كما يقصد البعض إحدى الروضتين (الحسينية او العباسية) للحصول على الأجر والثواب، وخاصة الذين لا يستطيعون النوم في ذلك الوقت، ومنهم من يخرج إلى عمله مبكرا.

تصطف على مائدة الإفطار قبل أذان المغرب بربع ساعة الأكلات الشعبية التالية: شوربة العدس، حلاوة طحين حنطة، حلاوة طحين تمن، حلاوة نشه، دولمه، كباب شامي، كباب مشوي. باذنجان مشوي، كبّة حلب والمصقعة.

وفي الوقت الحاضر أضيفت أكلات جديدة هي: چل فراي، مخلمة، حلاوة شعرية، إضافة إلى ذلك فهنالك بعض الشرابت منها: شربت تمر هند، وشربت ماء الرمان، وشربت السكنجبيل، وكذلك الخيار واللبن.

وعندما يبدأ المؤذن بالأذان، يشرع الصائم بالفطور أولا بشرب ماء ساخن يسمّى (قنداغ)، وقليل من الحساء (الشوربة) أو قليل من التمر. وقبل تناول أي نوع من الأطعمة يقرأ دعاء الإفطار المشهور (اللهمّ لك صُمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ، وعليك توكلت، ولصوم غد نويتُ).

ومن الظواهر التي كانت في كربلاء أنّ التمن والمرق لا يُؤكلان وقت الإفطار، وأنّ أكلهما وقت السحور، وبعض الناس يتناولون فطوراً خفيفاً ويجعلون السحور الوجبة الرئيسة. ومن بين الأكلات التي لا تؤكل إلا قليلاً جدا في هذا الشهر السمك، لانه يسبب العطش، وكذلك الهريسة.

وبعد الصلاة يقرأ الصائم دعاء (الافتتاح) ويطلق على تسميته أيضاً دعاء العشاء، حيث يُقرأ في كل ليلة في المساجد والمشاهد المقدسة عن طريق مكبّرات الصوت في الوقت الحاضر، وأوله: (اللهمّ إني أفتتح الثناءَ بحمدك...)، كما يُتلى القرآن أيضا.

وتظل المساجد الصغيرة والكبيرة في رمضان مفتوحة إلى السحور، وتضاء داخلها كما تضاء المآذن أيضاً. وفي أماسي هذا الشهر تُعقد مجالس الوعظ والإرشاد، وتفتح أبواب الدواوين، ويزداد التزاور، فالزائرون لم يكتفوا بزيارة دواوين محالهم فحسب، بل يتزاورون من بيت إلى بيت.

وقد جرت العادة في تلك الأيّام أن يتبادل الأهالي الدعوات على طعام الإفطار بغية الحصول على الأجر والثواب. أما أهل البساتين فإنّ الغالب منهم يتبادلون الزيارات من بستان إلى أخرى لزيارة الأقارب والمعارف في المدينة. أمّا اليوم فقد أخذت تلك العادة تنقرض لأسباب عدة.

ومن الناس من يزور الأضرحة المقدسة ثمّ يعود إلى مقر عمله. وتدور في هذه المجالس أحاديث وحكايات وقصص وقضايا الساعة والمجتمع، فهناك مجالس تتكلم في الأدب والفكر وأخرى في الدين والتاريخ وفي شؤون الحياة المختلفة، ومحور الحديث في كل هذه المجالس أهمية الصوم وأبعاده وفوائده، فهو من الناحية الاجتماعية يعوّد الصائم على ترك العادات الضارة التي تفكك الأخلاق والمجتمع. فالصائم لا ينظر إلى عورات الناس، ويتودد إلى ذوي القربى، ويتصدق على اليتامى وأبناء السبيل، ويساعد المعوزين ويعطف عليهم، ويتفقد المرضى والأيتام والأرامل، وغيرها ذلك من أنواع البر والصدقات، مما يرفه عن الفقير ويدخل السرور إلى قلبه. وهذه الواجبات فرضها الإسلام على الصائمين، كما إنها تعزّز الروابط الاجتماعية بين أفراد الناس، وبذا تتحقق الوحدة الاجتماعية بالمحبة والمودة وتبادل المنافع.

وهناك مجالس أفراح ومسرات، ومجالس للعزاء (الحسيني) تقيمها الأسر والبيوتات الكربلائية في الدواوين، فلا تخلو محلة من المحلات والأماكن المقدسة منها. وهناك مجالس للعلماء الأعلام لا تخلو من الفوائد والفرائد هي محافل عامرة بأطرف الأحاديث وأمتع المناقشات، حيث تُلقى الخطب الرنانة في فضائل الشهر المبارك.

ومن بين تلك المجالس الكبيرة التي تعقد في المدينة المجلس المقام في ساحة الإمام عليّ (ساحة البُلوش قديما) من قبل سوّاق سيارات الأجرة، ومجلس باب قبلة العبّاس، والمجلس المنعقد في الصحن الحسينيّ، والمجلس المنعقد في الصحن العباسي. بالاضافة إلى المجالس الأدبية التي تعقد في منتديات كربلاء، وتدور بين روادها الأحاديث الرمضانية الشيّقة وإلقاء الشعر فيها، حيث إنّ النوادر النثرية والنكات الشعرية يكون مجالها أوسع، وشذاها أضوع.

ومن المميزات التي تتسم بها هذه المجالس ما كان يدور بين رجال الدين من سادة وشيوخ، الذين يتربعون في طوار الصحن الحسيني الشريف، وكانت عملية نقد للسلطة الحاكمة آنذاك.

وكانت تشجع تلك الحلقات النقاش الجدلي في أواوين الصحن والمساجد، كما كانت تقام الصلاة في المساجد وفي البيوت، ثمّ ترتفع أصوات القرّاء وتلاوة القرآن الكريم بتلاوة شجيّة جليلة، حتى الشباب والأطفال يجمعهم شهر رمضان على الوئام والمحبة، فالأطفال يجتمعون في الساحات العامة للعب بعض الألعاب المسلية، والشباب يختلفون إلى مجالس لعبة (المحيبس) التي تُمارَس في الحارات والأزقة والمقاهي وفي البيوت أيضا.

وما دمنا بصدد الحديث عن الوقت الذي يُمضيه الشباب، فإنّ قسماً منهم كان يرتاد (الزّورخانه) للقيام بالألعاب الرياضية.

وفي ليلة الخامس عشر من شهر رمضان التي تصادف مولد الإمام الحسن (ع) تُعقد المحافل في معظم المساجد والبيوت وفي الصحنين المطهرين، كما تقام معالم الزينة في شوارع المدينة وأسواقها. أما الكسبة وكثير من أهل الأصناف وأصحاب المعامل وخاصة (القندرجيّة) صانعي الأحذية، فإن معظمهم كان يشتغل في الليل لينام في النهار.

ومن الصائمين من كان يمارس أعمالاً دينية، نذكر منها زيارة العتبات المقدسة، وإعطاء الخيرات والمبرّات في كل ليلة من ليالي رمضان وخاصة في ليالي القدر والجمع. فقد كانت الصواني الحافلة بأطايب الطعام تحمل إلى دور الفقراء وتوزع على أبناء السبيل. ويتم (حمل القرائين أي المصاحف) في مرقد الإمام الحسين عليه السّلام ومرقد أخيه العباس عليه السّلام وفي المساجد والبيوت. ويتم إعطاء ختمات قرآن من قبل الأسر على أرواح الوالدين والفقيد العزيز لقاء أجور معينة يُتفق بشأنها مع خاتم القرآن ما بين ثلاثة دنانير أو دينارين لكل ختمة واحدة.

أما مجالس التجويد فهي كثيرة وتعقد في الغالب في المقابر المحيطة بالصحن وأبرز المساجد، وهي حلقات لقراءة القرآن وتعليم التجويد وقواعده. ومن المتخصصين بعلم التجويد وقواعده الحاج عبدالله والحاج محمّد حسين الكاتب والسيّد محمّد حسن السيف والملا حمود النّجار وغيرهم، وهم يستمعون لكل قارئ ويصححون أخطاءه. وفي كل ليلة تقرأ سورة كاملة من قبل الجالسين، ثمّ يختم القرآن ليلة العيد، فيوزع ماء الورد والبقلاوة والزلابية والشربت (العصير)، وتجلب من البيوت الصواني التي تحتوي على البخور والشموع الموقدة نذراً لخاتمي القرآن، وذلك من أصحاب المحافل، كما توزّع كتب خاصة بالمناسبة كالقرآن الكريم، والصحيفة السجادية، وهداية المستفيد في علم التجويد، وغيرها.

وتقوم محافل ختمة القرآن الخاصة بالنساء في أيّام شهر رمضان نهاراً، وتكون المراسيم نفسها التي تطبق في مجالس الرجال عدا الأكل.

وفي رمضان تكون حركة المرور في النهار بطيئة مقابل الحركة الشديدة في الليل. وهناك عادة استُحدثت في السنوات الأخيرة، وهي السفر إلى سامراء بعد صلاة الظهر من كل يوم من أيّام رمضان والعودة إلى كربلاء في منتصف الليل من قبل السحور بساعة تقريبا.

وهناك مجالس خاصة للإفطار تقيمها بعض الأسر الموسرة بمثابة خيرات. ومن المميزات الخاصة بليالي القدر أن الناس يسهرون حتّى الصباح، وفيها يتوافد الزوّار على المدينة لزيارة العتبات المقدسة، ثمّ يتوجهون إلى النجف، حيث تصادف ذكرى استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام. ولهذه الليلة طقوس خاصة، منها أن التجّار يوزعون كيلوّين لحم وكيلوّين تمن وكيلوّين دهن على كل واحد من الفقراء. كما يوزع البعض نقوداً، وتوزع كميات كبيرة من الأطعمة والفواكه، وذلك في الصحنين المطهرين والمساجد. أو ترسل إلى بيوت بعض الأسر الفقيرة أو في أي مكان آخر، وغالبا ما توزّع بطاقات خاصّة تعرف بـ (التكتات) على الفقراء كيما يستطيع هؤلاء شراء الخبز بواسطتها، ولعلهم استندوا إلى الحديث النبوي الشريف: «أيها الناس، من أفطر منكم صائما في هذا الشهر كان له عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه»، وبذلك يكسب المتبرّع أجرا كبيرا.

وفي ليالي القدر يتلو الناس القرآن ويدعو الله كثيرا، كما يُعقد مجلس حاشد في دار الأميرة الهندية تاج دار باهو في محلة باب الطاق بعد الإفطار يتناول فيه الناس الشاي والحليب، ويقرأ بعض أفراد الجالية الهندية مجلس تعزية وأشعارا بلغتهم. وفي الليلة الأخيرة من ليالي القدر التي تصادف شهادة الإمام عليّ عليه السّلام يخرج موكب للعزاء يحمل مثالاً لنعش الإمام مغطى بعمامة خضراء، ثمّ يطوف الموكب شوارع المدينة وساحاتها مارا بالروضتين وينتهي بالدار، حيث يتناول الأفراد الزلابية والبقلاوة. ومن البديهي أن الواردات التي تصرف على هذا المأتم والمآتم الأخرى التي تقام عدا شهر رمضان هو من أملاك الأميرة الهندية ترسل إلى وكلائها للانفاق على ذلك.

وهناك ظاهرة الحر الشديد، فقد كان رمضان يمر في السنين الخوالي بموسم الصيف، فلم يطق الصائم صبراً، ما يُضطر البعض الخروج إلى نهر الحسينية وقت العصر، فيدخل جسمه (يغطسه) إلى حد الرقبة في النهر أو في أحواض البيوت لحين وقت أذان المغرب. وكان الناس قديما يملأون جرارهم (الشراب الخزفية) ويضعونها فوق سطوح المنازل (الستائر) حتى يبرد ماؤها لحين الإفطار. ولما لم يكن الماء باردا فإن (المشربة) كانت تدلى في البئر أحياناً لحين وقت الإفطار حتّى يبرد ماؤها، وكذلك هو الحال بالنسبة للفواكه، فالرقي والبطيخ والخيار مثلا يتدلى بواسطة الزنبيل في البئر أيضا، ولا تخلو البيوت يومذاك من الآبار، والناس ينهمكون بأعمالهم في السوق، وإنهم يبللون الأزر (الوزرات) ويضعونها على رؤوسهم اتقاء الحر الشديد. وقد وصف الشاعر الكربلائي الشيخ محمّد حسن أبو المحاسن (ت ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٤م) يوماً من أيّام شهر رمضان في كربلاء شديد الحر:

ويوم كظل الرمح بين نفوسنا
وبين الظماً والجوع فيه عراكُ
وقد وقفت شمس النهار،فما لها
وما لجسوم الصائمين حَراكُ

أما إذا صادف شهر رمضان في الشتاء، فإن الشباب يرتاد الحمامات ليلاً ويقضي فيها ساعات طوالا.

أما ليلة (اليتيمة) وهي تطلق على ليلة الجمعة الأخيرة من هذا الشهر فتكون المدينة ملأى بالناس والزوار، وهي أشبه بليلة القدر. ولم تمض أيّام معدودات حتى يستعد الناس لشراء ما يطلبونه لأيام العيد من الحناء والكليجه والملبّس واللقم والحلويات بأشكالها، فتجد حوانيت الشكرجية قد تجمهر عليها الناس لشراء الحلويّات والشكرات، وكذلك الحال عند الحلاقين إذ تجدهم قد استعدوا لاستقبال الزبائن، فلم تجد في محالهم وصالوناتهم مكاناً إلا واحتلوه، وكل زبون ينتظر دوره، فالحلاق وصناعه في شغل شاغل بحلاقة رؤوس الصبيان والأطفال ورؤوس ونقون الكهول والشيوخ. وتجد الخياطين يسهرون الليالي من أجل إنجاز خياطة ملابس و (دشاديش) الناس سواء كانوا مدنيين أم عسكريين، وكثيراً ما نجد الأطفال والصبية ينتظرون حتى ساعات متأخرة من الليل للحصول على ملابسهم التي أعدوها ليوم العيد، وكذلك الخياطات فهن يسهرن الليالي الأخيرة من رمضان للمهمة نفسها.

أما النعلجية (مصلحو الأحذية) والقندرجية (بائعو الأحذية) والأوتجية (العاملون في كوي الثياب) فهم في شغلٍ شاغل بأداء الأعمال المتعلقة بهم، وذلك استعداداً ليوم العيد، والبزازون فإن حوانيتهم قد جُهزت بأحدث الأقمشة الجديدة ذات الأشكال والألوان البراقة، وترى الناس مزدحمين في حوانيت سوق التجار الكبير وسوق العرب، وتكاد تكون أعمالهم منحصرة في أماسي رمضان بعكس النهار، حيث تكون الأعمال شبه معطلة كما ألمحنا إلى ذلك.

أما الحمّامات فإنها تبقى مفتوحة طوال شهر رمضان ليلاً، وتزدحم زحاماً شديداً ليلة العيد، حيث ترى الناس قد جلسوا على مقاعد أو تُخوت الحمّام ينتظرون دورهم بغسل أجسامهم ودلكها وإزالة ما علق بها من الأوساخ. وقد يضطر صاحب الحمام أن يجعل درجة غليان الماء عالية بحيث لا يطاق جو الحمام من شدة الحر، مما يسبب خروج الناس والاستحمام بسرعة، حتى يفسحوا المجال لغيرهم، هذا إذا كان الوقت شتاءً، أما في الصيف فيلجأ الناس إلى الأنهار أو الغسل في البيوت.

عن: كربلاء في الذاكرة ص ٢٥٤-٢٧٠ (بتصرف)

تأليف: سلمان هادي طعمة. مطبعة العاني، بغداد

تصوير: بهاء عبد الستار

مزار التل الزيني

اسواق كربلاء التي تزدهر بوجود زوار المراقد المقدسة

سفينة النجاة من معالم مدينة كربلاء